عهد

لصاحب العزة الأستاذ محمد محمود جلال بك

دلفت إلى « حراء » يدفعني إليه مثل ما يدفع الوالد إلى ولده من شوق، وقد تقضت على فرقتنا شهور ستة هي أطول ما غبت عن « شرفة عمرو » تكاءدتني خلالها صروف واحتوتني بلاد غريبة، تارة بصحاريها، وطورا بفنادقها، في ظلمات قاتمة بين باهر الأنوار، وآلام مضنية بين مظاهر النعيم. كم دعوت الله أن يجنبها صديقاً وعدواً على السواء!

و « حراء » أشبه بالصومعة منه بالغرفة ، يختبيء تواضعا في ظل السلم الصاعد إلى الدور العلوي — صغير المساحة كبير السعة بما حوى من ذكريات ، وما زين جدرانه وما حوالها من آثار وطنية وعائلية وخاصة ... يتصدرها أول مكتب جلست إليه صغيراء وأول ما حل في الدنيا من ذكريات دراستي. صنعه «المعلم أحمد» من أمهر صناع الأثاث بالقاهرة لذلك العهد وأهداه إلى أبي. وإلى الدار الآخرة تولى الصانع ومن أهدى ، أغدق الله عليهما رضوانه . وعلى هذا المكتب نلت أول ما اصطلح عليه المجتمع من مقاييس السير في إحدى طرائق الحياة : «الشهادة الابتدائية»

وما كدت ألقي النظرة الأولى على المكتب حتى استوقف نظري كتاب ذو جلد أخضر أنيق ليس عليه عنوان ، ولكنه يحمل في أسفله اسمي ؛ وما أدري لم استحوذ على اهتمامي كله؟ وكيف طوى ما بيني وبين عديد الأشياء التي تملأ فراغه ولكل واحد منها تاريخه وعبرته، ولكثير منها روعة من الفن!

مددت يدي إلى الكتاب وقلبت صفحاته في عجلة ثم أقفلته، وقد أيقنت بما سمعت من الأستاذ الشيخ محمد عبد السميع : — « إن لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص » فاعتبرت ثم أدكرت عهداً!

في سنة ١٩٤٤ كان صديقي « و. ز » يعمل رئيسا للنيابة في بور سعيد . وهي لد أحبه وأفضله على غيره . ويعرف الصديق في هذا الأيثار فيعجب كيف صبرت فلم أزل ذلك البلد الحبيب من سنة ١٩٤٠ وكنت أختصه بما يسمح به الزمن من فترات ثم، يلح في زورة قريبة أروح بها عن نفسي ونفسه . وأوجدني محرجا فأم وأركب الطائرة إليه لأول مرة منذ سنة ١٩٣٧ إذ وقف خط الطيران خلال الحرب .

ولا أكاد أغادر الطائرة حتى أرى رجلا يسارع إلى مكانها في جذل ولم أشك في أنه يستقبل بعض القادمين ؛ وكلما لاحت مني التفاتة خيل إلي أنه يترقبني؛ وتملكتني حيرة [illegible] يرني حين أتحقق أنه يقبل علي وما أكاد اقترب من بناء المطار حتى يحييني باسمي ثم يصافحني ويحمل عني حافظة أوراقي وبعض كتب وصحف!! إنه على صاحب بوفيه المطار وهو لم يرني منذ ثماني سنين وما زال يذكرني كأنها هي أيام .

وعندهذا، تلقى الوفاء وأمثاله قلوبهم تتلقى الجميل الصغير بجهد فيرفعه إلى صنيع عظيم يثبت في مرآتها وتعكسه على قدر هذه الصورة جزاء عليه . وهذا هو عنوان للشعب الكريم كما صاغه الرحمن في الوادي المبارك. وما يتطرق الخلل إلى الأخلاق إلا من حيث تأتي المثل السيئة من المسيطرين والظاهرين فتعود إلى الفساد تدريجيا ثم يتفاعل في أحضان الزمن فيصبح تهلكة . فعند هؤلاء تجد العزاء بقدر ما تجد البرهان الذي يردك إلى أناتك فلا تفزع . إن الخير باق وهو على المستقبل ظاهر .

وفي الصباح الباكر رافقني صديق قديم إلى الشاطيء الجميل . وهو أجمل شاطيء رأيت فيما زرت من بلاد الدنيا ! بل قل إنه اجتذبنا واقتادنا. ورحم الله شوقي إذ يقول : —

ألين إذا قاد الجمال أعنتي وأعنو إذا اقتاد الجميل عناني

وجلسنا نستمتع بالهواء وبالمنظر وبالذكريات . فعين إلى الحاضر وأخرى إلى الماضي ، لا نذهب في هذا الأخير خببا بل مترفقين . ومتى هدأت أعصاب المرء شمله الرفق ، والرفق يولد النظام . وأول ما يتحكم في هذا اتساق داخل المرء من قلب وفكر ، وبهما تتناسق أمواج الحياة .

كان الوقت باكرا ، والموسم لم يبدأ بعد ، فلم يكن بالشاطيء إلا قليل من مرتاديه ، وجلهم من أهل البلد . وبينا نتناول القهوة إذا بالرفيق يقول : « أنظر ! أتعرف من القادم ؟ » والقادم

على بعد . قلت : لا ، ولكني أراها « هروله ضديق » ! قال يا أخي إنك لا تتبين من ملامحه شيئا ؟ قلت لعله القياس. ألم يذكر أناتول فرانس مرة عن اليرنسيس تريبوف قولها لزوجها « أنظر إن هذا ظهر فرنسي » وذلك بين ازدحام الهواة والمتفرجين في قاعة لبيع اللوحات الفنية . ثم كان هو ظهر أناتول فرانس ، وقد كان الزوجان من خلفه وعلى بعد ليس باليسير ؟ وكانت الأمير فرنسية الأصل .

قال الصديق « أما زلت على شغفك بهذا الكاتب ؟ لقد مضت سنوات لم أسمع ما تكشف من ثنايا عباراته ، وما تحاول جمعه مما ينثر بين كتاب وآخر ! » قلت لندع فرانس اليوم ولأقل لك إن للبصـــــيرة كما للبصر مدى» ولم يطل الحوار ، فقد حسن ختامه بيد تمتد سلاما ووجه بشرق بشرا ! هذا زميل في الدراسة الثانوية يشغل اليوم عملا ذا خطر ، وقد جاء يقضي أياما في هذا البلد الكريم ، وله برفيقي سابقة معرفة ، وهو من القلائل الذين يحفظون الوداد ، ويحرصون على صلات الماضي.

شاركنا القهوة ، وعددنا هذا اللقاء غنما كبيرا . وقلنا إنه الشاطىء الذي أحببنا ، يسارع بالجزاء فيضيف إلى ارفاده رفدا ، بل هو يضع لهذه الزورة القصيرة طابعا وتاريخا .

وللصديق أ . ز . غرام بالشعر صاحبه منذ حداثته ، يتخير جيده ويحرص على جمعه وحفظه ، كأنما يرى في هذا برا بالماضي ، كالذي يرى في صون عشرته وزمالته ، وتعهده رفاق الدراســـة بالسؤال عنهم والتقصي ! والأدب مروءة ، والمروءة لباب الأدب .

وكذلك لم يكن بد من تطور الحديث إلى هذه الناحية ، وكأنما هي الصورة الجامعة لثلاثتنا وهي أقرب الصور إلى ماحولنا ، فزرقة البحر ودقة الرمال ورقة الهواء وهذا اللقاء قصيدة عصماء . ولقد صدق المرحوم عبد الرحمن حامد بك الشاعر التركي حين قال إن الطبيعة هي أول كتاب أو أول قصيدة .

وسارعت الساعات إلى انطواء بسحر هذا الحديث ، وإذا « بالصديق المهرول » يفاجئني متسائلا : هل نفذت العهد ؟ دهشت وقلت : ذكرني يا صديقي أي عهد ؟ قال عهد صديقك أحمد توفيق الشاعر الشاب الذي ... فاستوقفت التعريفات الدافقة وقلت ان تزيدني علما بمن تذكر ، فإنني أعرف عنه أكثر من غيري ، وتربطني به وبأسرته أكثر من وشيجة ، ولكن قل لي شيئا عن ذلك العهد فقد كدت تفجعني في وفائي كما فجعتني فيه المنايا !! قال : ألا تذكر قصيدته إليك سنة ١٩١٦ والتي خاطبك فيها .

ضاع الرجاء فكن بحيث رجائي واحمل على حسن الوفاء وفائي

قلت : بلى يا صديقي ، وكانت كتابا ما زلت أحتفظ به . وفيها ما يسري مسرى الأمثال ، وكثيرا ما استشهدت ببعض أبياتها .

قال انه تقض إليك فيها بذات نفسه ، ووضع بين يديك تراثه النادر من خلق وفن. وقد رجعت إلى ذكريات الدراسة وإلى ذكريات الأمة التي كانت بيننا فعرفت أنه يتجه بكل ثقته إليك حيا وميتا فتنشر ذكره ، وانه كان في تشاؤمه يحس دنو أجله، ويعلم أن الذي سيطويه يوما قد يطوي آثاره إلا أن تقوم عليها.

للكلام بقية محمد محمود جلال

المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم
في القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الكبير ادوارد وليم لين

نقله إلى العربية الأستاذ عمر لطفي بك

كتاب يقع في ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير وهو سجل حافل لعادات المصريين وآدابهم وأحوالهم واعتقاداتهم وأساطيرهم القرن التاسع عشر يمتاز بوضوح المنهج ودقة التفصيل وتوخي الحقيقة وجمال العرض وتصوير الأشياء والأشخاص بالقلم والريشة تصويرا يحفظ لها خصائصها وملامحها في الذهن والعين على تراخي الزمن . والكتاب مترجم عن الانجليزية ترجمه أمينة دقيقة تكاد مع بلاغتها وسهولتها تكون حرفية

يطلب الكتاب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات الشهيرة والثمن خمسون قرشا عدا أجرة البريد .